العبادة السياسية في العراق القديم

أ.م.د سعدون عبدالهادي الأمير □□□ **م.د حسين سيد نور الأعرجي**

جامعة واسط– كلية التربية □□□ جامعة واسط– كلية التربية

مقدمة

يعد الدين احد أهم مقومات الحضارة الإنسانية، ولا يمكن للإنسان الاستغناء عنه، فالدين ظاهرة اقترنت بالإنسان منذ انفصاله عن المملكة الحيوانية[١]□، فضلا عن ذلك إن المؤسسة الدينية أولى المؤسسات التي قادت المجتمعات البشرية، بحيث أصبحت الأسس الدينية هي القاعدة التي بنيت عليها معظم المؤسسات السياسية والاقتصادية والثقافية للمجتمع، لذا فإن الدين عنصر أساسي وفاعل في صياغة حياة الإنسان وفق أساليب وأنماط وطرق مختلفة لإدارة الحياة السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية وحتى العلمية.□ ويُعد الدين في حضارة العراق القديم الظلة التي تنضوي تحتها كل دوافعها وفعالياتها ونتاجها، فتلك الحضارة لم تستغن عنه في أي مرحلة، وفي الوقت نفسه لم تحد عقائده ولا شعائره من تطورها واحتدام فعلها[٢].

كان المعبد المنهل الذي انبثقت منه شتى مجالات الحياة، فلم تكن الكتابة إلا مفردة أصيلة في هذا الميدان، فلا غرو أن تكون الكتابة نتاجا أصيلا انبثق من المعبد في العهد الشبيه بالكتابي (٣٥٠٠–٢٨٠٠ ق.م) في مدينة الوركاء (الطبقة الرابعة أ)، بل إن المعابد في العراق القديم قد احتضنت أولى أنواع المدارس في التاريخ واستمر اهتمامها بشؤون التعليم عبر جميع مراحل الحضارة العراقية القديمة

[٣]، أما من ناحية الإدارة المجتمعية فقد كانت هذه الإدارة بيد الكهنة ولم تكن بعيدة عن إدارة جوانب الحياة الدينية والاقتصادية كافة وبالتالي السياسية.

طرأ تغير نوعي في بنية الإدارة التي كانت دينية محضة، وتمثل ذلك في عصر فجر السلالات السومرية الذي شهد أولى التنظيمات السياسية، إذ استطاعوا من خلاله دمج السلطتين الدينية والسياسية. وكانت أهم القواعد السياسية متأتية من الأسس الدينية، إذ اعتمدها الكهنة في إدارة المجتمع قبل أن ينصهر المجتمع بقالب السياسة، لأن المؤسسة الدينية قد نشأت قبل المؤسسة السياسية، الأمر الذي أكدته المصادر المسمارية بالإشارة إلى ظهور المؤسسة الدينية في منتصف الألف الخامس قبل الميلاد [٤].

نشأت المؤسسة الدينية من خلال وصول الجماعات إلى مستوى اقتصادي متطور من شأنه تحقيق فائض اقتصادي نوعي أفضى إلى تحقيق فائض في الإنتاج سمح بتفرغ عدد لا بأس به من الرجال والنساء للإشراف على المعبد وإدارة الشؤون الدينية، وقد انعكس ذلك بجلاء على مواقع المؤسسة الدينية تمثل في إقامة المعابد الكبيرة تركزت حوله مجموعة من النشاطات المرتبطة به، والتي أدت بمرور الزمن إلى تكوين مؤسسات مدنية مختلفة[٥]. وتؤكد ذلك نصوص مسمارية وجدت في بعض مواقع المدن السومرية، على الارتباط الوثيق والتزامن بين تطور المؤسسة الدينية وتطور المؤسسة السياسية، وليس قيام ملوك دويلات المدن السومرية بالجمع بين السلطة السياسية والدينية إلا مثالا على هذا الارتباط، فالحاكم السومري كان يحمل لقب □□ الذي يعني من الناحية اللغوية السيد، وملكاً بالمفهوم السياسي المعروف فضلا عن الكاهن الأعلى في الوقت نفسه[٦].

لذا يمكننا القول إن الدين كان الأب الروحي والأساس للسلطة السياسية ومنهلها، اذ لم يكن لأحد من الملوك الاستغناء عن المعتقدات الدينية أو الدين بصورة عامة. وقد اتخذ هذا التناغم أشكالاً عدة، وكانت العبادة السياسية واحدة منها.

ومن الجدير بالذكر أن مصادرنا عن الديانة في العراق القديم تقتصر بالدرجة الأساس على العبادة الرسمية (الديانة الرسمية) كما نظمها رجال الدين، أما عقائد عامة الناس وعباداتها الخاصة بها فليس لدينا سوى النزر اليسير[٧].

العبادة السياسية في العراق القديم

بعد أن كانت المؤسسة الدينية مهيمنة على مقدرات السلطة السياسية، استطاعت بعض الشخصيات السياسية تحقيق نمط من التوازن بين السلطتين من خلال فصل الدين عن السياسة. ففي ظل الظروف التي واجهتها مدينة لجش، والمتمثلة بالصراع بين الكهنة ورجال السياسة على السلطة والامتيازات تمكن (اوروانمكينا) ٢٤٠٠ ق.م من حسم الصراع لصالحه بانقلاب دبره ضد (لوكال – بندا) وأشار (اوروانمكينا) إلى أن الإله ننجرسو قد اختاره من بين الناس ليكون نائب الإله ووكيله لكي يقوم بإصلاح الأوضاع الفاسدة وتنظيم حياة الناس، وقد كانت الإجراءات التي قام بها الملك أوروانمكينا (اوركاجينا) أولى الإصلاحات في التاريخ[٨]. فقد قام بوضع مبادئ عامة أشبه ما تكون بالقوانين التي تحدد مهام وحدود كل مؤسسة سياسية كانت أم دينية، فبعد ما قام به الكهنة من ابتزاز للثروات واضطهاد الناس وسيطرتهم على أملاك المعابد لمصالحهم الشخصية، قام أوروانمكينا الذي ينتمي إلى طبقة الكهنة بانقلاب عسكري استطاع من خلاله السيطرة على الحكم في مدينة لكش، فأيدته فئات المجتمع وساندته، ولاسيما طبقة المحاربين الذين عانوا من اضطهاد الكهنة وجباة الضرائب[٩].

ومن هذا المنطلق يمكن القول أن عصر أوروانمكينا مثّل الانطلاقة لفصل الدين عن السياسة، فقد أصبحت الغلبة لصالح السلطة السياسية على السلطة الدينية، وقد دأب الحكام والملوك بعده جاهدين من أجل السيطرة على كل مقدرات السلطة الدينية ومن أي نوع. لذلك اعتبر الدافع الآنف الذكر، فضلا عن التزاحم والصراع بين السلطتين، المحرك الأساس لوجود العبادة السياسية، لكونها غدت إحدى الأساليب والأنماط التي مكنت الملوك والحكام من الهيمنة على ما تبقى من أفكار

الجذب الديني للشعب في العراق القديم. فضلا عن انتزاع ما تبقى من سلطة الكهنة منذ عهد أوروانمكينا.

وعلى الرغم من انفصال السلطة السياسية عن السلطة الدينية، فإن المؤسسة الدينية حافظت على طابعها السياسي، واستطاعت أن تقوم بجملة أعمال وممارسات مثلت رد فعل المؤسسة الدينية تجاه المؤسسة السياسية. وكان رد الفعل متمثلاً بصور عدة من أبرزها الاهتمام المتزايد بالناس من خلال مجموعة إجراءات كان على رأسها الاهتمام البالغ بشؤون التعليم منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد لنشر تعاليمها الدينية من جهة ولاستقطاب الناس إليها من جهة أخرى. ولم تكن المؤسسة السياسية بمنأى عن هذا الأمر فقد أقامت مكتبات كبيرة ضمن مرافقها بغية استقطاب العلماء والأدباء خدمةً لأهدافها السياسية(١٠).

أصبحت هذه العلاقة السمة الغالبة للعلاقة بين السلطة السياسية والمؤسسة الدينية، فطالما حافظ النظام السياسي على قوته، بقيت المؤسسة الدينية ضمن الحدود التي رسمت لها وقدمت الخدمات المطلوبة، فإذا تضعضع النظام السياسي بغت عليه المؤسسة الدينية(١١). وفي ظل ذلك نجد أن المؤسسة الدينية عانت الأمرّين في عهد الدولة الاكدية إلا أنها استطاعت أن تحافظ على ما يكفيها لان تنهض من جديد حين تجد الضعف قد انتاب السلطة السياسية، ولم تتردد المؤسسة الدينية في تأليب الناس ضد الحكم الاكدي(٢٣٧١– ٢٢٣٠ ق.م) (١٢) لأنه نسف الكثير من المعتقدات الدينية التي كانت سائدة، وفي نهاية المطاف كان التناقض والتناحر بين المؤسستين السياسية والدينية (القصر والمعبد) من أهم الأسباب التي أدت إلى انهيار الإمبراطورية الأكدية(١٣).

جاءت فكرة العبادة السياسية من خلال المعتقدات التي آمن بها العراقيون القدماء، وهي أن الآلهة هي من أعطت الملوكية للبشر من خلال عقيدة هبوط الملوكية من السماء إلى الأرض. فقد أشارت جداول الملوك السومرية إلى أن الملوكية (Nam- Lugal) نزلت من السماء– هي هبة منها– ومقرها فيها ورموزها

الصولجان والتاج وعصا الراعي[١٤] لذا فإن هذا الارتباط كان موضع اهتمام المؤسسة السياسية التي عملت جاهدة من اجل فك الارتباط مع المؤسسة الدينية من خلال تأسيسها للعبادة السياسية.

اتخذت العبادة السياسية صوراً عديدة كان أهمها:

١- دين الدولة الرسمي.

٢- الآلهة السياسية.

٣- ادعاء الإلوهية من قبل الملوك.

٤- إلزام الناس بدين معين يتناغم مع ما تريده المؤسسة السياسية.

ومن خلال تلك الممارسات أرادت المؤسسة السياسية نزع فكرة الأصل السماوي للملوكية وجعلها من خلال الملوك الأشخاص ممن ادعوا الإلوهية وفرضها عبادة سياسية يجب على الناس أن يدينوا بها، كون العبادة تعظيم وتمجيد وتكريم، فضلا عن نسف نظرية التفويض الإلهي التي اعتمدها العراقيون القدماء في مسيرة حكمهم السياسي[١٥] لان نظام الحكم والديانة في العراق القديم قائم على أن الآلهة تحكم الكون والبشر[١٦].

جاءت مفردات العبادة السياسية بالتزامن مع تزايد وتنامي قوة المؤسسة السياسية، فأصبحت العبادة السياسية إحدى الأشكال الرئيسة للحياة الدينية في المجتمعات الإنسانية وبالذات في بلاد الرافدين، فالعبادة هي معتقد بسيط تتركز حوله مجموعة من الطقوس والأساطير الخاصة بجماعة معينة من الناس (شريحة اجتماعية أو قبيلة) [١٧]. فضلا عن ذلك أن العبادة هي المناخ الديني الذي تنشط ضمنه الحياة الروحية للأفراد[١٨]، وبما أن الدين هو مجموعة من مجمل العبادات المعروفة في المجتمع السومري فإن الدين أوسع من مفهوم العبادة السياسية[١٩].

١-دين الدولة الرسمي:

ارتبطت السلطة السياسية في العراق القديم ارتباطا مباشراً بالدين،وقد تم تنظيم الآلهة ليتماثل مع النظام السياسي في البلاد [٢٠]، وشمل هذا الارتباط الوثيق الطقوس فعلى سبيل المثال نجد أن الإله يذهب الى الصيد مثلما يفعل الملك. وبعدما يتناول الإله طعامه ترسل أطباقه إلى الملك ليتناول الطعام[٢١]. وفي مجال التكهن نجد أن هناك التكهن بالمصادفة، والكهانة المقصودة، وقد فضل مصدر القرار السياسي النوع الثاني من التكهن[٢٢]. ونعتقد بأن هذا الأمر كان مقصوداً لإمكانية التحكم بهذا النوع من العرافة، ومن ثم تكون نتيجة العرافة متطابقة مع توجهات السلطة السياسية.

تُمثل خدمة الآلهة ركناً أساسياً في الدين الرسمي[٢٣]، ولذلك على الملك أن يقوم بتقديم القرابين، واقامة الشعائر الدينية فضلاً عن بناء معابد الآلهة، وأقامة تماثيلها[٢٤]. وكانت تماثيل الإله هي الأخرى أساسية، فالإله يُعدُّ موجوداً فيها، ولذلك فعندما تحمل هذه التماثيل في الحرب عندها يُعدُّ الإله غائباً حتى عودته. وكانت التماثيل توضع على قواعد في مصلى المعبد المقدس. وكان الإله يعيش هنا مع عائلته، ويُخدم كما يُخدم الملك[٢٥]. وكانت الأعياد ركناً أساسياً من الدين الرسمي[٢٦].

كان الإله آنو إلهاً للسماء، وقد ارتبط هذا الإله بالملوكية وشاراتها التي كانت أمامه في السماء ومنه أنتقلت إلى بني البشر، ومثله كان الإله انليل الإله القومي للسومريين ومانح الملوكية ومن بيده تقرير المصير[٢٧]. وهذا الإله أكثر الآلهة ارتباطاً بالسلطة السياسية، فهو الذي يقود الشعب، مفوضاً حكمهم إلى الملوك الذين عليهم أن يحكموا بالعدل والاستقامة[٢٨]. وشكل هذا الإله نوعاً من الضمانة لدويلات المدن السومرية فعلى الرغم من التجزئة السياسية، تظهر وكأنها شكلت نوعاً من الحلف، حين جعلت منه سلطة عليا خارقة للطبيعة[٢٩].

يلاحظ على الديانة الرسمية في العراق القديم أنها طُبعت بالطابع السياسي لانها مثلت في كثير من أمورها انعكاساً لما كان يجري على الأرض من ممارسات سياسية. ففي عالم الآلهة كما في عالم السياسة كانت القضايا السياسية (أقلها في العصر الشبيه بالكتابي وبداية العصور التاريخية) تناقش ومن ثمَّ تُتخذ القرارات في مجالس لها رئيسها ومستشارها وأعضائها، وبهذه الطريقة فقد غطى النظام الديني نظام السياسة[٣٠].

والشيء المهم الآخر الذي نلاحظه في الدين الرسمي هو أن قوة إله من الآلهة يرتبط بالمكان الذي تدير منه السلطة السياسية الحاكمة شؤون الدولة، أي انه يرتبط بالعاصمة. ويمكننا أن نستثني انليل صاحب النفوذ السياسي الكبير على الرغم من ان مدينته نفر لم تكن في يوم من الأيام مقراً لسلالة حاكمة. وفضلا عن المكان كان لاعتقاد الملك بإله من الآلهة دورٌ في ذلك.□لقد نُسجت الديانة الرسمية بأسلوب يماثل أسلوب السلطات السياسية منذ البداية فكما تجمعت القرى في وحدات سياسية عليا حول المدن، لابد وأن هذا الاسلوب قد أثَّر على عالم الآلهة فأخذ الإله الرئيس الزعامة في السلطة فائقة الطبيعة، وأجتمع الآلهة الآخرون الأقل شأناً حوله على غرار البلاط الملكي، ونجد هذا الاسلوب نفسه عندما عرف العراق القديم مركزية الحكم، فقد تجمعت المدن في ممالك لصالح العاصمة وملكها ومن ثَمَّ أصبح إله العاصمة يمتلك السلطات العليا[٣١]. وهكذا نجد أن الدين الرسمي كان يتماشى في جزء كبير منه متوافقاً مع النظام السياسي القائم، ويقدم لهُ خدمات جليلة.□وزيادةً في سيطرة السلطة السياسية على السلطة الدينية أحتفظ الملك في العراق القديم بمنصب الكاهن الأعلى من الناحية الاسمية، في حين جعلوا الاشراف الفعلي على المؤسسة الدينية لأبنائهم وبناتهم وكبار أعوانهم[٣٢]. ويمكن القول أن قدسية النظام السياسي التي أعطت ثمارها عبر الطاعة لأوامر السلطة الحاكمة المنضوية تحت مظلة الدين، ومعرفة ملوك العراق القديم لهذه الفائدة كان سبباً هاماً في تأليه بعض الملوك لأنفسهم حين استجدت مستجدات سياسية جديدة.

ورغم تحكم السلطة السياسة بجزء كبير من الشؤون الدينية إلا ان التقلبات السياسية، والتطور الاجتماعي أدى إلى تطور في الفكر الديني. إذ اتسم العصر البابلي بظهور اتجاه جديد في العبادة متمثلا بظهور المعابد الصغيرة التابعة للمنازل لعبادة أفراد الأسرة، فضلا عن ذلك نجد الكثير من المعابد الصغيرة شيدت في الطرقات العامة وخصصت لعبادة الآلهة الثانوية، وهذا ما يشير إلى علاقات شخصية مع الآلهة، أي بمعنى آخر أنه اتجاه جديد مثّل اتجاهاً اجتماعياً في الديانة قائم على تعلق الفرد بالآلهة ليس من خلال السلطة السياسية. فعلى سبيل المثال لم يحظ بعض الآلهة باحتفاء ولا شهرة كبيرة مثل الإله امورو الذي سمي الاموريون باسمه، فقد ارتقى الإله مردوخ إلى المنزلة الأعلى في المجمع الأعلى للآلهة وامتلاكه لقوى الإله انليل الإله القومي للسومريين [٣٣].

وفي العصر الكشي تم التركيز على أهمية السلوك الجيد للإنسان، وانبثق عن الاعتقاد الديني المرتبط بالدين الشعبي نوع من الاتجاه الديني، وأن لم يغير المعتقد الديني البابلي تغييراً جذرياً، لكنه أدى إلى توسع في الاعتقاد بالجن والشياطين والسحر والشعوذة، وكيفية طرد الشياطين بالتعاويذ فضلاً عن قراءة المستقبل والتنبوء به[٣٤]. ووجد الكهنة أنفسهم مضطرين لتنظيم عالم الظلمة للأرواح الشريرة بشكل يستطيعون فيه مكافحتها، وفي الوقت نفسه وضعوا تنظيماً معيناً لعالم النور الخاص بعالم الآلهة المحلية القديمة[٣٥].

٢ – الآلهة السياسية

على الرغم من أن هذه الآلهة تعد أركانا بارزة في هيكل معتقدات سكان بلاد الرافدين إلا أنها ترمز بالدرجة الأولى إلى السلطة السياسية أكثر من رمزيتها إلى السلطة الدينية. والسبب يعود إلى أن النصوص المسمارية قد أكدت على أن العراق القديم قد شهد منذ النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد مرحلة انتقال قيادة السلالات السومرية من يد السلطة الدينية إلى يد السلطة السياسية [٣٦].

إن الظروف التي أحاطت بدويلات المدن جعلتها تحتاج إلى القائد العسكري الذي يحمي حدودها وأراضيها الزراعية أكثر من حاجتها إلى رجل الدين. وقد أدى هذا الانتقال إلى ظهور آلهة جديدة ترمز إلى السلطة السياسية والى هيبتها، وهذه الآلهة الجديدة بدأت تستقطب لنفسها الكثير من مهام الآلهة الرئيسة، لذا فأن الإله انكي لم يعد الإله الوحيد المهم في القسم الجنوبي من العراق القديم[٣٧]. لذلك يجب الحديث عن هذه الآلهة باعتبارها من المصاديق المهمة للعبادة السياسية في العراق القديم

أ- الإله ننكرسو: ومعنى اسمه (سيد مدينة كرسو) وهو ذو مغزى مهم لأنه يؤكد انه الإله الرئيس لمدينة كرسو إحدى أهم المدن التي شغلتها سلالة لكش وانه تجسيد للسلطة الحاكمة في تلك المدينة، فضلا عن ذلك أن الإله ننكرسو لم يرتبط بأي من المظاهر الطبيعية أو بأي مهمة من مهام الآلهة الأخرى، بل نسبت إليه وظائف أخرى، وبتعبير أدق أن الإله ننكرسو هو تجسيد للسلطة السياسية التي ظهرت إلى حيز الوجود في تلك المرحلة[٣٨].

ب-الإله مردوخ: وهو اله مدينة بابل الرئيس، ومعنى اسمه باللغة السومرية (عجل إله الشمس) أما اسمه باللغة البابلية فهو (مار – دوكو) أي ابن الإله دوكو، ومعنى دوكو هو التل المقدس والذي يعد على أنه مجلس الآلهة [٣٩]. فبعد أن أصبحت مدينة بابل مركزاً للسلطة السياسية في العراق القديم في حدود ١٨٠٠ قبل الميلاد وما دام الإله مردوخ هو اله مدينة بابل ورمزاً لسلطتها السياسية، فإن هذه الأسباب قد دفعت به لأن يفوق في مكانته مكانه الإله أيا (انكي) ولذلك عدلت صياغة الملاحم والأساطير الخاصة بخلق الكون والإنسان وهذا التعديل أدى إلى كتابة ملحمة جديدة سميت قصة الخليقة البابلية[٤٠].

ت-الإله آشور: وهو الإله الرسمي للآشوريين، ويعتقد أن أصله قديم جدا لعله يعود إلى فترة العبادة الطوطمية. ومما يؤكد قدم اسمه هو ظهوره ضمن الكتابات

المسمارية لمدينة ابيلا التي تورخ في حدود ٢٥٠٠ ق.م . ومنذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد اخذ الآشوريون يشبهون الإله آشور بالإله انليل، ولذلك صارت ألقابه نفس ألقاب الإله انليل[٤١].

وفي القرن التاسع قبل الميلاد أصبح الإله آشور مساويا للإله (إن – شار) والد الإله آشور، وبذلك ارتفعت مكانة الإله آشور فوق جميع الآلهة [٤٢]. أما مهام هذا الإله فهي كثيرة ما دام هذا الإله يمثل السلطة السياسية، لذلك عُدَّ الإله أشور مقرراً للمصائر والإله الحاكم والمقاتل واله الحكمة أيضا[٤٣] .

٣- تأليه الملوك:

دأبت السلطة السياسية، من ملوك وحكام الذين تم انتخابهم من قبل المجالس النيابية، على حماية مناصبهم والاحتفاظ بها، لذلك توجب على الملوك والحكام إيجاد أساس مستقر ومستقل يقيمون عليه سلطتهم، ولم يكتفوا بمجرد قبول الناس بهم حكاما وانتخابهم لهم في تجمعاتهم الشعبية طالما أن ارتباطهم بالحكم كان يقتصر على الحالة الطارئة وينتهي حكمهم بزوال تلك الحالة، ولهذا السبب توجه الملوك إلى الآلهة وأكدوا على الحق الإلهي والانتخاب الغيبي بدلا من انتخاب الشعب لهم [٤٤]. وعلى الرغم من هذا التطور النوعي في نظام الحكم إلا أن ذلك لم يكن كافيا أثناء سيطرة السلطة السياسية على غالبية مقدرات الشعوب من خلال امتلاكها أراضي شاسعة، الأمر الذي أعطاها الفرصة السانحة من اجل سلب ما تبقى من مقومات المؤسسة الدينية. فبعد أن اوجدوا الأساس لانتقال كامل من مبدأ الانتخاب الشعبي إلى مجال الحق الإلهي، انتقلوا إلى مرحلة أخرى هي إيجاد طريقة تصادر الحق الإلهي المقر من قبل الآلهة وجعلوه من قبلهم عندما عدوا أنفسهم آلهة على أساس أن العقيدة السومرية تستند إلى أن الملك كان المرشح للمنصب من قبل إله المدينة ويتم انتخابه ملكا من قبل الآلهة أثناء اجتماعها في نفر تحت سلطة الإله انو أو انليل[٤٥].

إن عقيدة العراقيين القدماء في أن الملوكية (السلطة السياسية) هي من اختصاص الآلهة ولا يمكن لأي جهة أخرى شرعنة امتلاك الملوكية أو السلطة السياسية، فقد ذكرت النصوص المسمارية أن الملوكية هبطت من السماء، وهو نظام ملكي مقدس يحكم الآلهة نفسها، وقد وجد هذا النظام منذ الأزل أي قبل أن يوجد من يمارسها على الأرض [٤٦]، لذلك أصبحت هذه العقيدة من أهم دوافع إيجاد ظاهرة تأليه الملوك لأنفسهم أملا في سلب المشرع الأول للنظام الذي أقيم عليه النظام السياسي في العراق القديم.

وعلى الرغم من وجود ظاهرة التأليه في العراق إلا أنها لم تستطع أن تكون ديانة كما هو متعارف عليه، فقد بقيت في نطاق ضيق لم يتجاوز العبادة السياسية ولم ترتق إلى أبعد من ذلك، أي أنها لم تصل إلى مرحلة الإيمان على اعتبار الأخير مرحلة متطورة في العقائد الدينية، لذلك فإنها اقتصرت على الجانب الإعلامي فضلا عن ذلك لا يمكن إنكار إمكانية وجود أقلية تؤمن بالملك المؤله من باب المصلحة السياسية لا من ناحية الإيمان أو الاعتقاد الديني، لان المعتقد يتألف عادة من الأفكار الواضحة والمباشرة تعمل على رسم صورة ذهنية لعالم المقدسات، وتوضح الصلة بينه وبين عالم الإنسان[٤٧]. فضلا عن أن هناك سبب مهم لعدم انتشار هذه العبادة ألا هو افتقار هذه العبادة إلى نظام طقسي، يضع الإنسان في علاقة مع العوالم القدسية التي صاغ المعتقد صورتها الذهنية، فبقيت هذه العوالم صورا ذهنية باردة تعيش في عقول أتباع هذه العبادة لا في قلوبهم[٤٨].

تعد فكرة التأليه من الأفكار الطارئة على المعتقدات الدينية في العراق القديم لأنها لم تنبع من المعتقدات الدينية ولم تكن جزءا منها يوما، ولم تستمر لفترات طويلة لارتباطها بالواقع السياسي، كونها تزول بزوال الملوك الذين اعتنقوا هذه الفكرة، أي أن الشعب لم يحمل يوما هذه الفكرة ولو كان يحملها لدأب عليها ولقام الناس بتعمير معابدهم الخاصة وقدموا لهم القرابين بشكل واسع، واستمروا عليها حتى بعد زوال سلطانهم السياسي. ومثل هذه الأمور لم تظهر في النصوص المسمارية بشكل واسع

بل أقتصرت على النصوص الخاصة بالحكام التابعين للسلطة السياسية، وحتى هؤلاء لم يكونوا مؤمنين بها كمعتقد ديني[٤٩]. والمؤكد أن تاليه الملوك لأنفسهم لم يرفعهم إلى مستوى الآلهة الرسمية للسلالة بأي حال من الأحوال[٥٠].

دخل تأليه الملوك لأول مرة في العصر الاكدي (٢٣٧١– ٢٢٣٠ ق.م) فقد صور الملك نرام–سن (٢٢٩١–٢٢٥٥ ق.م) إلها وصور في المنحوتات لابسا خوذة ذات قرنين وهي شارة الإلوهية وقد سُبق اسمه في الكتابات بعلامة الإله (* دنكر). ولم يقتصر هذا النوع من العبادة على الاكديين، بل امتد لفترات لاحقة لهم في العصر السومري الحديث (٢١٢٠–٢٠٠٤ق.م)، فقد عد ملوك سلالة أور الثالثة أنفسهم آلهة اعتبارا من نهاية حكم اورنمو (٢٠٩٥ ق.م)، إذ وردت اسماء ملوك السلالة وأمامهم شارة الآلهة، ويلبسون في الصور الخوذ ذات القرنين ويقدم لهم نوع من النذور بنفس الطريقة التي يقدم بها الى الآلهة مع ترتيل لهم، فنجد الملك شولكي (المؤله شولكي) (٢٠٩٤–٢٠٧٤ ق.م) قد عُبد كإله اثناء حياته وبعد مماته ايضا وأصبح يعرف باسم ملك الجهات الاربع (ملك العالم) وخصص لنفسه الكهنة والمعابد[٥١] وتذكر النصوص المسمارية أن التراتيل قد نظمت لهم وأدخلت الأعياد على شرفهم، واستخدمت أسمائهم لدى بعض الناس أسماء شخصية[٥٢].

ان ارتباط القوة السياسية بمفهوم الالوهية فسره بعض الباحثين في عد القوة محورا يرتكز عليه مفهوم الإلوهية يجعل من السهولة فهم تلك الثورة في العلاقة التي يشير إليها توينبي بين الإنسان والطبيعة بعد وصوله إلى شيء من القوة بسيطرته على الطبيعة حوله والذي " نقل توازن القوى بين الإنسان والطبيعة إلى مركز كان في مصلحة الإنسان" إذ اتخذ له من قوته المشتركة شيئا يعبده إلى جانب القوى غير البشرية التي كان من قبل يشعر بأنها قادرة على كل شيء، ويعتقد بعضهم أنها تقوم في أساس تلك الممارسات التي تصدم شعورنا متمثلة بحالات تأليه الملوك لأنفسهم، أو ما تعرضت له بعض الآلهة من سلوكيات شائنة. وقد كان من الطبيعي أن يصل الإيمان بالقوة أساسا لمفهوم الإلوهية إلى نهايته بعد النمو الواسع للسلطة السياسية

وتمركز السلطة بيدها إلى إرغام الآلهة القديمة على الانزواء بعيدا وإخضاع الاتجاه اللاهوتي بالطبع إلى سيادة الدولة الخاصة التي تقضي بتوحيد الديانة وجمع السلطات المدنية[٥٣]

ومن الحقائق التاريخية أن الملك سرجون (٢٣٧١- ٢٣١٥ ق. م) مؤسس الإمبراطورية الاكدية لم يؤله نفسه أثناء حياته بل مُنح الإلوهية بعد وفاته بمدة قصيرة بسبب الانجازات التي حققها في تكوين الإمبراطورية. لذلك أصبح ممكنا لولديه ريموش (٢٣٠٧-٢٣٥١ ق.م) و مانشتوسو (٢٢٩٢-٢٣٠٦ ق.م) لأن يؤلها نفسيهما أيضا. وهذه الحقائق جعلت الأمر بديهياً لأن يعد حفيده الملك نرام – سن (٢٢٥٥-٢٢٩١ ق.م) نفسه إلها منذ اليوم الأول الذي تسلم فيه السلطة. وكان هذا الأمر من أهم الأسباب التي دفعت الناس إلى الانتفاضة ضد حكمه في أرجاء الإمبراطورية كافة ولاسيما المدن السومرية، ولكن الملك نرام – سن استطاع إخضاع المدن المنتفضة مما اضطر آلهتها إلى الاعتراف بإلوهيته[٥٤]. وذكر نرام – سن بأن الإلهة عشتار، انليل، دكان و ننخرساك وانكي وسن و شمش و نركال قد قرروا أن يعدّوه إله مدينة أكد وقرروا بناء معبد له وسط المدينة. وهذه الإشارة توضح بأن الملك سرجون وولديه ريموش و مانشتوسو قد حصلوا على الإلوهية بالأسلوب ذاته، أي بمبايعة آلهة المدن السومرية والبابلية[٥٥]. وعلى الرغم من سيطرة الملوك الاكديين والسومريين في العصر السومري الحديث (٢٠٠٤-٢١١٢ ق.م) على الحكم لفترة ليست بالقصيرة فان مفاهيم عبادة الملك المؤله لم تلق رواجا، وهذا الأمر يُفهمنا أن الإيمان لا يفرض من أعلى وبقرار سياسي، بل ينبع من القاعدة الشعبية الواسعة[٥٦].

إن تاليه الملوك لأنفسهم كان له أسباب عديدة منها أن الإلوهية هي أعلى مظاهر الذات[٥٧]، ومن اجل الظهور بمظهر القوة والعظمة يجب الادعاء بهذا المظهر. والبعض الآخر ادعى أنهم اكتسبوا صفة الإلوهية بمبايعة آلهة دويلات المدن جميعا بالإلوهية لهم، وهذا ما حصل للملوك الاكديين، فمن الحقائق التي حصلنا عليها من النصوص المسمارية أن الاكديين قد تمكنوا من تكوين أول

إمبراطورية في التاريخ شملت مساحات واسعة امتدت من جبال زاكروس شرقاً حتى البحر المتوسط غرباً ومن جبال طوروس شمالاً حتى الخليج العربي جنوباً [٥٨]. والبعض الأخر ادّعوا الإلوهية لأنهم جاءوا من زواج مقدس كما هو الحال مع الملك شولكي عندما أكد على أن والده اورنمو (٢١١٢–٢٠٩٥ ق.م) قد مارس دور الزوج، أي دور الإله تموز في الزواج المقدس، لذلك ادعى الإلوهية لأنه نتج عن أبوين مثل كل واحد منهما دور إله، فضلا عن ذلك أن بذرته قد خُصّبت في لحظة إلهية، لذا فقد كتبت بخصوصه الكثير من المدائح والتراتيل التي كرست لغرض تقديسه [٥٩]. وقد وصفت النصوص المسمارية الملك امار – سن (٢٠٤٦–٢٠٣٨ ق.م) انه (الإله الشمس الذي يهب الحياة إلى البلاد، اما الملك شو– سن (٢٠٣٧–٢٠٢٩ ق.م) فقد منح نفسه صفة الإلوهية مثل أخيه أمار– سن وقد بنيت المعابد في عدة مدن من أجل تقديسه وتقديم القرابين والصلوات إليه [٦٠].

٤– إلزام الناس بدين معين يتناغم مع ما تريده المؤسسة السياسية.

لا يخفى الدور الكبير الذي أداه الدين في مشاريع السلطة السياسية، بدأً من القول بقدسية السلطة السياسية إلى الحروب، وبناء المعابد وغيرها من المشاريع التي كانت تُنفذ تحت مظلة الدين. وقد جنت السلطة السياسية نتائج ايجابية من جراء هذه السياسة، الأمر الذي يعني أن الدين الرسمي للدولة كان لهُ تأثيرهُ الفاعل في نفوس أبناء الشعب. وهذا يعني ان الدولة نجحت في جعل الشعب يتقبل الكثير من الأفكار الدينية التي كانت ترغب فيها. الا اننا مع ذلك نجد فشل بعض الملوك في فرض عبادة إله من الآلهة، ليكون في الصدارة، لأهمية هذا الإله في مشاريع الملك السياسية. والمثال الأشهر على ذلك محاولة الملك البابلي نبونائيد (٥٥٥– ٥٣٩ ق.م) في إعلاء شأن الإله سين على حساب الإله مردوخ، إذ رفض أغلب سكان مدن العراق القديم تقبل هذا الأمر [٦١].

الاستنتاجات

١- مثلت العبادة السياسية أهم أنماط التمازج بين الدين والسياسة خدمة لصالح السلطة السياسية.

٢- أصبحت العبادة السياسية في العراق القديم معياراً لقوة وعظمة السلطة السياسية، فنجد أن هناك علاقة طردية بين نمو العبادة السياسية وقوة السلطة السياسية، فكلما كانت الأخيرة ذات سطوة كبيرة زاد ارتباطها واهتمامها بالعبادة السياسية.

٣- مثل ادعاء الملوك بالإلوهية ركناً أساسياً من أركان العبادة السياسية.

٤- كانت العبادة السياسية على أشكال عدة كان أهمها الآلهة السياسية ودين الدولة الرسمي.

٥- ارتباط ارتفاع شأن الآلهة السياسية بقوة السلطة السياسية في تلك الدويلة او المملكة أو الإمبراطورية. فنجد أن الإله مردوخ لا يتصف بصفات غالبية الآلهة إلا بعد أن ازدهرت مدينة بابل في الألف الثاني قبل الميلاد.

٦- شاعت العبادة السياسية في الكتابات التاريخية بصورة كبيرة بحيث أن الديانات والعبادات الشعبية لم يصلنا منها إلا النزر اليسير.

٧- مثل العصر البابلي القديم (٢٠٠٦-١٥٩٥ ق.م) انعطافة في تشييد المعابد الصغيرة المخصصة لعبادة الآلهة الثانوية، وهذا يشير إلى علاقات شخصية مع الآلهة، وهو اتجاه جديد في الديانة قائم على تعلق الفرد بالآلهة لا عن طريق السلطة.

٨- وفي العصر التالي وهو العصر الكشي تم التأكيد على السلوك الجيد للانسان، وانبثق عن الاعتقاد الديني المرتبط بالدين الشعبي نوع من الاتجاه الديني، أدى إلى توسع في الاعتقاد بالجن والشياطين والسحر والشعوذة، وكيفية التخلص منها، فضلاً عن قراءة المستقبل والتنبوء به

٩- من أهم أسباب عدم انتشار هذه العبادة هو افتقارها لنظام طقسي، يضع الإنسان في علاقة مع العوالم القدسية التي صاغ المعتقد صورتها الذهنية. فبقيت هذه العوالم صورا ذهنية باردة تعيش في عقول أتباع هذه العبادة لا في قلوبهم.

١٠- هنالك أسباب عديدة حول إعلان إلوهية الملوك من الناحية الإعلامية تراوحت بين سيطرة الملوك على أراضي شاسعة إلى الادعاء بأنهم جاؤا عن طريق الزواج المقدس أو بمبايعة آلهة المدن الأخرى أو اختيار الآلهة لشخصه ليصبح ملكا مؤلهاً.

١١- نجحت السلطة السياسية في أغلب الاوقات بتمرير مشاريعها السياسية عن طريق الدين السياسي، لكن محاولة بعض الملوك في فرض عبادة إله معين لحاجتهم اليه في مشروعاتهم السياسية لم يكتب لها النجاح بسبب المعارضة الشعبية فضلاً عن كهنة الإله الذي كان مقرراً أن يتوارى لصالح الإله المزمع أن تكون له الصدارة في عالم الآلهة.

الهوامش

[١]) فراس السواح، الدين ، بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني، ط٤، منشورات دار علاء الدين، (دمشق، ٢٠٠٢).

[٢]) نائل حنون، شريعة حمو رابي المطبعة العربية، ط١، الناشر بيت الحكمة، (بغداد، ٢٠٠٣)، ج١، ص١١.

[٣]) فوزي رشيد، المعتقدات الدينية، حضارة العراق القديم، دار الحرية للطباعة، (بغداد ١٩٨٥)، ج١، ص١٨٨.

[٤]) المصدر نفسه، ص١٨٤.

[٥]) فراس السواح، الدين ، ص٤٢.

[٦]) فراس السواح، الدين ، ص٤٣.

[٧]) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ط١، (بغداد ١٩٧٣)، ج١. ص٣٣٢؛ هاري ساكز، الحياة اليومية في العراق القديم (بلاد بابل وآشور)، ترجمة كاظم سعد الدين، دار الشؤون الثقافية العامتن (بغداد، ٢٠٠٠)، ص٢١٢.

[٨]) خالد موسى الحسيني، القانون وادارة الدولة في وادي الرافدين، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (جامعة بغداد، كلية الاداب، قسم الاثار، ٢٠٠٢)، ص١١– ٥٠.

[٩]) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ص٣٢١.

[١٠]) فوزي رشيد، المعتقدات الدينية، ص١٨٩.

[١١]) فراس السواح، الدين، ص٤٣.

[١٢]) للمزيد ينظر غيث سليم فرحان، نشوء سلالتي أكد وأور الثالثة تطورهما وسقوطهما، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة واسط،(٢٠٠٥).

[١٣]) عبد القادر الشيخلي، الوجيز في تاريخ العراق القديم، (بغداد، ١٩٩٠)، ص٩٥.

[١٤]) المصدر نفسه، ص٧٥.

[١٥]) للمزيد حول هذه النظرية ينظر حسين سيد نور، التفويض الإلهي احد أركان العقيد السياسية في العراق القديم، مجلة كلية التربية، العدد الأول، جامعة واسط، ٢٠٠٧.

[١٦]) طه باقر، مقدمة، ص٢٩٩.

[١٧]) فراس السواح، الدين، ص٨٧.

[١٨]) المصدر نفسه ، ص٨٩.

[١٩]) المصدر نفسه ، ص٨٨.

[٢٠]) جان بوتيرو، بلاد الرافدين الكتابة–العقل– الآلهة، ترجمة الأب البير ابونا، مراجعة وليد الجادر، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد، ١٩٩٠)، ص٢٥٨.

[٢١]) جون اوتس، بابل تاريخ مصور، ترجمة سمير عبدالرحيم الجلبي، (بغداد، ١٩٩٠)، ص ص٢٦٤–٢٦٥.

[٢٢]) هاري ساكز، الحياة اليومية...، ص٢٢٢.

[٢٣]) جون اوتس، بابل تاريخ مصور، ص٢٦٣.

[٢٤]) نجيب ميخائيل ابراهيم، مصر والشرق الأدنى القديم، ج٦، ط٢، دار المعارف، (القاهرة، ١٩٦٧)، ص٢٧.

[٢٥]) جون اوتس، بابل تاريخ مصور، ص٢٦٣.

[٢٦]) للمزيد. ينظر: المصدر نفسه، ص٢٦٣.

[٢٧]) المصدر نفسه، ص ص٢٥٨–٢٥٩.

[٢٨]) ل. دولابورت، بلاد مابين النهرين حضارة بابل وآشور، تعريب مارون الخوري، دار الروائع الجديدة، (بيروت، ١٩٧١)، ص١٦١.

[٢٩]) جان بوتيرو، بلاد الرافدين الكتابة–العقل– الآلهة، ص٢٥٩.

[٣٠]) المصدر نفسه ، ص٢٦٠.

[٣١]) المصدر نفسه، ص ص٢٥٨–٢٥٩.

[٣٢]) عبدالعزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، ج١، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، (القاهرة، ١٩٦٧)، ص٣٩٦.

[٣٣]) عبد القادر الشيخلي، الوجيز...، ص١٢٩.

[٣٤]) انطوان مورتكارت، تاريخ الشرق الأدنى القديم، تعريب توفيق سليمان وآخرون، (دمشق، ١٩٦٧)، ص٢٠٠.

[٣٥]) المصدر نفسه، ص٢٠١.

[٣٦]) فوزي رشيد، المعتقدات الدينية، ص١٦١.

[٣٧]) المصدر نفسه، ١٧٤.

[٣٨]) المصدر نفسه، ص١٦١.

[٣٩]) المصدر نفسه ، ١٦٢.

[٤٠]) المصدر نفسه ، ص١٧٤–١٧٥.

[٤١]) المصدر نفسه ، ص١٦٣؛ نجيب ميخائيل ابراهيم، مصر والشرق الأدنى القديم، ص ص١٥٤–١٥٧.

[٤٢]) فوزي رشيد، المعتقدات الدينية، ص١٦٣.

[٤٣]) المصدر نفسه، ص١٦٤.

[٤٤]) حسين سيد نور جلال، الاختيار والتفويض الالهي احد اركان العقيدة السياسية في العراق القديم، مجلة كلية التربية، جامعة واسط، العدد الاول السنة الاولى ، ٢٠٠٧، ص١٥٨.

[٤٥]) محمد صالح الزيباري ، النظام الملكي في العراق القديم، (دراسة مقارنة مع النظام الملكي المصري)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل ١٩٨٩، ص٢١.

[٤٦]) فاضل عبد الواحد ، عامر سليمان ، عادات وتقاليد الشعوب القديمة، دار الكتب للطباعة والنشر، بغداد ١٩٧٩، ص٤٩.

[٤٧]) فراس السواح، الدين، ص٤٩.

[٤٨]) المصدر نفسه، ص٥٣.

[٤٩]) للمزيد. ينظر:

سعدون عبدالهادي الأمير ، التوظيف السياسي للفكر الديني في العراق القديم (٣٠٠٠-٥٣٩ ق.م)، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، (٢٠١٠)، ١١٧.

[٥٠]) فوزي رشيد، ابي- سن أخر ملوك سلالة أور الثالثة، ط١، وزارة الثقافة والإعلام، (بغداد ١٩٩٠)، ص٢٦.

[٥١]) عبد القادر عبد الجبار الشيخلي، الوجيز في تاريخ العراق القديم، ص١٠٤.

[٥٢]) سامي سعيد الاحمد، المعتقدات الدينية في العراق القديم، دار الشؤن الثقافية العامة،(بغداد ١٩٨١)، ص١٢.

[٥٣]) النجم، فلسفة الوجود، ص٥١.

[٥٤]) فوزي رشيد، نرام سن ملك الجهات الاربع، ط١، وزارة الثقافة والاعلام، (بغداد ١٩٩٠)، ص٥٩-٦٠.

[٥٥]) المصدر نفسه، ص٦٠-٦١.

[٥٦]) فراس السواح، الدين، ص٩٦-٩٧.

[٥٧]) المصدر نفسه ، ص٢٩٥.

[٥٨]) فوزي رشيد، نرام سن...، ص٧.

[٥٩]) فوزي رشيد، ابي – سن، ص٢٥.

[٦٠]) المصدر نفسه، ص٢٦-٢٩.

[٦١]) غزالة، هديب حياوي، الدولة البابلية الحديثة والدور التاريخي للملك نبونئيد في قيادتها، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، (١٩٨٩)، ص ص١٧٢-١٧٣.

المصادر

١- انطوان مورتكارت، تاريخ الشرق الأدنى القديم، تعريب توفيق سليمان وآخرون، (دمشق، ١٩٦٧).

٢- حسين سيد نور جلال، الاختيار والتفويض الإلهي احد أركان العقيدة السياسية في العراق القديم، مجلة كلية التربية، جامعة واسط، العدد الأول السنة الأولى، ٢٠٠٧.

٣- خالد موسى الحسيني، القانون وإدارة الدولة في وادي الرافدين، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (جامعة بغداد، كلية الآداب، قسم الآثار، ٢٠٠٢)، ص١١- ٥٠.

٤- سامي سعيد الأحمد، المعتقدات الدينية في العراق القديم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨١.
٥- سعدون عبدالهادي الأمير، التوظيف السياسي للفكر الديني في العراق القديم (٣٠٠٠-٥٣٩ ق.م)، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، (٢٠١٠).
٦- طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ط١، (بغداد ١٩٧٣)، ج١.
٧- عبدالعزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، ج١، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، (القاهرة، ١٩٦٧).
٨- عبد القادر الشيخلي، الوجيز في تاريخ العراق القديم، (بغداد، ١٩٩٠).
٩- غزالة، هديب حياوي، الدولة البابلية الحديثة والدور التاريخي للملك نبونئيد في قيادتها، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، (١٩٨٩).
١٠- غيث سليم فرحان، نشوء سلالتي أكد وأور الثالثة تطورهما وسقوطهما، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة واسط، ٢٠٠٥.
١١- فاضل عبد الواحد، عامر سليمان، عادات وتقاليد الشعوب القديمة، دار الكتب للطباعة والنشر، بغداد ١٩٧٩.
١٢- فراس السواح، الدين، بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني، ط٤، منشورات دار علاء الدين، (دمشق، ٢٠٠٢).
١٣- فوزي رشيد، ابي- سن أخر ملوك سلالة أور الثالثة، ط١، وزارة الثقافة والإعلام، (بغداد ١٩٩٠).
١٤- فوزي رشيد، المعتقدات الدينية، حضارة العراق القديم، دار الحرية للطباعة، (بغداد ١٩٨٥)، ج١، ص١٨٨.
١٥- فوزي رشيد، نرام سن ملك الجهات الأربع، ط١، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ١٩٩٠.
١٦- محمد صالح الزيباري، النظام الملكي في العراق القديم، (دراسة مقارنة مع النظام الملكي المصري)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل ١٩٨٩.
١٧- نائل حنون، شريعة حمو رابي المطبعة العربية، ط١، الناشر بيت الحكمة، (بغداد، ٢٠٠٣)، ج١.
١٨- نجيب ميخائيل ابراهيم، مصر والشرق الأدنى القديم، ج٦، ط٢، دار المعارف، (القاهرة، ١٩٦٧).
١٩- هاري ساكز، الحياة اليومية في العراق القديم (بلاد بابل وآشور)، ترجمة كاظم سعد الدين، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد، ٢٠٠٠).